آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة العشرون، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٨ هـ .ق، ٤٧ – ٧٨

العلمانية؛ مفهومها ونشأتها

أحمد سعدي*

صادق كاظم عباس الساعدي**

الملخص

يتناول هذا البحث ظاهرة العلمانية من حيث المفهوم والنشأة وقد خلصنا منه إلى أنّ العلمانية تعني المادية والدنيوية واللادينية، سواء قرأناها بفتح العين (العَلمانية) أو بكسر العين (العِلمانية)، فانَّ موقف التحفظ والرفض منها واحد كما سوف يتّضح من مطاوي بحثنا إن شاء الله تعالى. وإلى جانب ما تقدّم فقد أمطنا اللثام – بفضل الله تعالى – عن الخلفيات والبواعث التي اسهمت في تكوين وإيجاد النزعة المادية واللادينية في الفكر العلماني، بغية التعرف عليها لدراستها ومعالجتها، وحذراً من اجترارها وتكرارها. ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث ويتجلي الهدف منه، كونه يعالج موضوعاً حساساً، يمثّل نقطة خلاف حادة بين الفكرين الإلهي والمادي، ويسهم قدر المستطاع – في ضخّ الوعي والمناعة لمواجهة الفكر العلماني، حذراً من الوقوع في فخّه، وتحرزاً من الدوران في فلك مخططاته. وكان من بين النتائج التي توصلنا إليها في هذه المقالة: أنّ النسخة العلمانية المقترحة لبلادنا الإسلامية لم تكن دقيقة في تشخيصها، لانَّ العلمانية وليدة المشكلات و التعقيدات التي عانت منها أوروبا، فقياسها مع بلداننا الإسلامية قياس مع الفارق.

---

* أستاذ مساعد في العلوم القرآن والحديث، جامعة طهران، كلية الإلهيات، فرديس فارابي، قم (الكاتب المسؤول)
a.saadi@ut.ac.ir

** طالب الدكتوراه في جامعة طهران، كلية الإلهيات، فرديس فارابي، قم، موفداً من طرف ديوان الوقف الشيعي في جمهورية العراق

تاريخ الوصول: ١٣٩٦/٧/٩، تاريخ القبول: ١٣٩٦/٩/١٠

الكلمات الرئيسة: العلمانية، العقلانية، الكاثوليكية، البروتستانية.

١. المقدمة

إنّ طبيعة الانفتاح الثقافي والإعلامي الجديد حَوَّل العالم إلى قريه عالمية (global village) يعلم من فيها بجميع ما فيها، حيثُ أزاحت الثورة المعلوماتية الجديدة خطوط الحظر العقيدي، وساقت الآراء المسمومة والسقيمة إلى العلن، بعد أن أخذت بالانتشار في بلاد الله وعباده، انتشار النار في الهشيم، عَبرَ قنوات إعلامية وفضائيات تلفزونية، وفي ظلّ أجواءٍ فكرية مشحونة، وأهداف مشبوهة وضالة. وبذلك لم تَعُد بلداننا محصّنَة أمام الغزو الثقافي الجديد، الذي يحمل بين طياته أوبئة فتّاكة، قادمة إلينا من بلاد الغرب، وكان من جملتها وباءُ العلمانية الذي استشري في كيان أمتنا الإسلامية، مستهدفا فكرها وعقيدتها وسلوكها، ومخططاً لسلب شخصيتها الرسالية المتمثلة بقيمها وفكرها وإيمانها وقناعاتها الدينية.

البحث الذي بين يديك يتناول بالدراسة والنقد مفهوم العلمانية لبيان حقيقتها المتقاطعة مع الاتجاة الديني، والوقوف على العوامل والأسباب التي أدّت إلى ظهورها. تبرز أهمية هذا البحث في كونه يعالج مفهوم العلمانية التي سعت إلى إلغاء الظاهرة الدينية بواجهات العصرنة والعقلنة والعلم، مستهدفة حجب الدين عن مسرح الحياة، وهو ما يتنافي مع المقدسات والمسلمات الدينية. والهدف الذي نتوخاه من هذا البحث هو ضخّ الوعي في الطليعة المؤمنة فيما يرتبط بمفهوم العلمانية حذراً من الوقوع في فخّها، وتوقيا من آثارها وتداعياتها التخريبية.

وسوف نحاول بعون الله تعالى من خلال هذا البحث الإجابة على هذا السؤال:

– ما هو مفهوم العلمانية وما هي العوامل التي أسهمت في ظهوره؟

مفترضين ابتداءً أنّ الدين يبارك كلّ ما يتوصل إليه الإنسان في الحقلين والتجريبي والعلمي مما له شأن في خدمة الإنسان وتطور حياتة وتقدمها نحو الأحسن وأنّ العلمانية مساوقة للمادية واللّادينية، وأنّ الاتجاة فيها ناشيءٌ من عدة أسباب، في طليعتها طغيان الكنيسة وجمودها الفكري، وحركة الإصلاح البروتستانية والتشويش الفكري.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا البحث استمرار لما كتبه من نقد حول العلمانية من أمثال محمد مهدي شمس الدين في كتابه *العلمانية*، ومحمد قطب في كتابه *مذاهب فكرية معاصرة* وعماد الدين خليل في كتابه *تهافت العلمانية*.

٢. التَعَرُّف على العلمانية

لم تتعرض قواميس اللغة القديمة لبيان مصطلح العلمانية، ويعود السبب في ذلك إلى حداثة هذا الاصطلاح، و وروده مؤخراً إلى بلادنا العربية. ومن أجل ذلك اقتصر تعريفها على بعض المعاجم كالمعجم الفلسفي فقد تحدّث عنها بالقول:

> والعلمانية بالإنكليزية (secularism) وترجمتها الصحيحة اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهو اصطلاح لاصلة له بالعلم (Science) والمذهب العلمي (Scientism)، وكلمة العلمانية هي ترجمة لكلمة سيكولاريزم (secularism) الإنكليزية، وهي مشتقة من كلمة لاتينية سيكولوم (saceulum) وتعني العالَم أو الدنيا، وتوضع في مقابل الكنيسة. العلمانية هي إيدولوجيا تشجع المدنية أو المواطنية وترفض الدين كمرجع رئيس للحياة السياسية (مصطفي، ١٤٣٣: ٣٤٤، ٣٤٦).

وفي موسوعة المعارف البريطانية ورد في تعريف العلمانية بانّها: «حركة اجتماعية تتّجه بالاهتمام بالشؤون الأرضية بدلاً عن الاهتمام بالشؤون الأخروية، وهي تُعَدُ جزءاً من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة، ودعت لإعلاء شأن الإنسان، بدلاً من التأمل في الله واليوم الآخر» موسوعة المعارف البريطانية (Britanica) باب العلمانية (secularism). وأما فيما يرتبط بكلمة العلماني فقد عرّفها المورد الثلاثي باللادينية (البعلبكي، ٢٠٠٨: مادة علم)، كما عرّفها معجم الطلاب الوسيط بأنها نسبة إلى العَلَم، وهو خلاف الديني والكهنوتي (أكرم، ٢٠٠٩: مادة علم). ونخلص من مجموع ما تقدّم من تعاريف إلى وجود فصام بين العلمانية والدين، وهي بذلك ترادف في معناها اللادينية والمادية والدهرية.

وعلى الرغم من هذا فقد شاع في الأوساط العربية ترجمة كلمة (Secularism) إلى العلمانية – بكسر العين – في إشارة إلى أنها داعية إلى العلم (ــــ العرمابي، ١٤٠٧)، وربما

استهدفوا من ذلك استقطاب الناس إليها، وسوقهم باتجاهها، وتجنباً من مواجهة الموحدين ومطاردتهم لها.

ومما ساعد على رسوخ هذه الترجمة وشيوعها، اقتران هذه الكلمة ومعاصرتها للإنجازات العلمية في الحقل التجريبي التي حدثت في أوروبا مما بعث على انسباق معنى العلم والتقدّم بمجرد سماع كلمة العلمانية، بفضل التقارن الحاصل بينهما، وقد أطلق العالم الروسي بافلوف (١٨٤٩-١٩٣٦م) على أمثال هذا التقارن بظاهرة تداعي المعاني (ـــ الصدر، ١٤٣١: ٩٥، ٤٣١-٤٣٩).

نعم إذا كانت ترجمة الكلمة اللاتينية إلى العلمانية – بفتح العين – فسوف يكون المعنى المترجم إلى العربية قريب من المعنى اللاتيني، نسبة إلى العالم المادي، فتكون الكلمة حينها مساوقة لمعنى المادية والدنيوية واللادينية التي تدلّ عليها الكلمة اللاتينية. وبنظرة دقيقة فإنّ العلمانية تعني المادية واللادينية، سواء قرأناها بفتح العين أو بكسرها، لأنها إن قُرِئت بفتح العين فستعني –كما قلنا تواً – المادية والدنيوية واللادينية، وأما إن قُرِئت بكسر العين، فستعني أيضا اللادينية، لاعتقاد أصحابها بمحورية علم الإنسان ومرجعيته في تقنين حياته وتنظيم شؤونه الاجتماعية، بدلا من محورية الله ومرجعية أحكامه في ذلك، وهو عبارة أخرى عن اللادينية. وعلى اكبر الظن، فإنَّ من قام بترجمة الكلمة اللاتينية (Secularism) إلى (العِلمانية)، قصد تلميع وجه العلمانية، وتزويقها لإظهارها بوجه جميل، تعتيما على ما تنطوي عليه من عداء وفصام مع الدين، وتمريرا لمنتوجهم الفكري البشرِي خلف واجهات براقة، وشعارات جذّابة.

تجدر الإشارة إلى انَّ بعض الكتَّاب (شمس الدين، ١٩٨٠: ٤٩، ٥١) صنَّف العلمانية إلى علمانية معتدلة وعلمانية متطرفة، واعتبر المعتدلة منها، متمثلةً بالأنظمة العلمانية التي تعترف شكليا بالمضمون الإيماني، وعلى خلافها الأنظمة العلمانية الإلحادية، التي تُحظِرُ كلّ لون من ألوان النشاط الديني.

ونحن نبدي تحفظنا من هذا الكلام، لأنّ الاعتدال بمفهومه الدقيق يعني اعتماد الخيار الأمثل من مجموع خيارات متفاوتة في درجاتها القِيمية. والعلمانية – مهما تعدّدت أطيافها –

لا تُنسبُ في أحسن التقادير إلى الوسطية والاعتدال، لانَّ إقصاء دور الدين من مسرح الحياة لا يمت – في قناعاتنا – إلى الوسطية والاعتدال في شيءٍ. نعم في وسع الكاتب تصنيف العلمانية – على أساس موقفها من الدين – إلى علمانية جزئية وعلمانية شاملة، كما صّنفها عبد الوهاب المسيري، حيث جعلها عنوانا لكتابه.[1] ومن حقك الاستفسار عن طبيعة الحكم العلماني وعن المعنى الذي يجعل الدولة قائمة على أساس علماني؟ ويتّضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما تقدّم من فهمنا للعلمانية بأنها اتجاه اجتماعي وسياسي يؤكد على حجب الدين عن الحياة برمّتها، وإقامة حكومة تجعل من الإنسان وإرادته مصدر شرعيتها وتشريعها لتنظيم شؤونه المختلفة. كما يتّضح إلى جانب هذا بأنّ الاستفادة من منجزات العلم، وتطوّراته الحاصلة في دنيا الإنسان، و استثمارها في خدمته للتخفيف من عنائه، واستبدال بؤسه وحرمانه بروحه وراحته وأمانه ... ليست وقفا على النظام العلماني، ولا سمة مختصة به، بل إنَّ جميع الأنظمة الحاكمة، علمانية كانت أم دينية، بالنسبة إلى منجزات العلم شرع سواء، لأنّ العلم محايد ويقف على مسافة واحدة من الجميع.

٣. تقاطع الآراء حول مفهوم العلمانية

ولما كانت العلمانية في تعريفها وبيان معناها مكتنفة بالغموض، بفعل مالُفَّت به من لفافات تلميعية، مخالفة لواقعها و حقيقتها، صار ذلك سببا لتفاوت الآراء فيها، في ظلّ ما مرّت به من تحولات وملابسات على طول تاريخ نشأتها، الأمر الذي بعث على قولبتها بثلاث صيغ متفاوتة: الأولي: فصل الدين عن السياسة، أي حجبه عن إدارة الدولة، مع السماح له بممارسة دوره الثقافي والتعليمي. الثانية: فصل الدين عن ممارسة دوره في الحياة العامة، بما فيها الجانب التعليمي، و تضييق الخناق عليه في حدود المناسك العبادية، لأنّ التعليم الديني قد يؤدي – كما يرى العلمانيون – إلى تضارب الآراء وصراعها، كالذي حدث من صراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية في وجهات آرائهما الفكرية. الثالثة: ومن أخطر المراحل التي بلغت إليها العلمانية هو الطابع الإلحادي الذي فصل الدين عن حياة الفرد والمجتمع على حد سواء، وصهر الكيان الفردي والاجتماعي في بوتقة الإلحاد.

و على هذا الصعيد تفاوتت الآراء واختلفت المواقف فيما يرتبط بمفهوم العلمانية بين القبول والرفض، والشدة والضعف، و قد زاد في هذا الاختلاف اتساعا، تنوّع البلدان التي انتهجت العلمانية أساسا لنظامها الحاكم، فمنها من انتهج الإلحاد اساسا لنظامه، كالنظام الاشتراكي الشيوعي، ومنها من اعترف بوجود الله في الخلق والابداع، وانكر دوره في التشريع والتقنين وتنظيم الحياة الإنسانية، كالنظام الديموقراطي الرأسمالي (← عبده متولي، ٢٠١٣: ١٦–٢٠).

وفي بلداننا الإسلامية صارت العلمانية مثار جدل ومحور خلاف، فمنهم من أعلن رفضه وكفره بالعلمانية، خيرها وشرّها، ومنهم من آمن بخيرها وشرّها، ومنهم من اختار موقف الانتقاء، وذلك باختيار الجوانب المضيئة من العلمانية متمثلة بالتقدم التكنلوجي والعلمي الذي احرزته على الصعيد الطبيعي والمختبري، ورفضوا في نفس الوقت الجوانب السلبية من العلمانية متمثلة بحجب الدين وقيمه التكاملية عن الحياة. وكان الرفض المطلق متمثلاً بالطيف المؤمن المتشدّد، الذي كان يخشى التعاطي مع العلمانية، لأنّها – في تقديره – وباءٌ خطير تنتقل عدواه وآثاره السيئة إلى فكر وحياة الإنسان مهما كانت درجة التعامل والانفتاح معه. وكان القبول المطلق متمثلاً بطبقة اللاهثين وراء السراب الغربي، والمنبهرين ببريقه الزائف، وكان من بين هؤلاء أحمد خان بهادر الهندي (١٨١٧–١٨٩٨) الذي أنشأ حركة ثقافية تدعو إلى الحضارة العلمانية الغربية، من خلال تأسيسه مدرسة في مدينة عليكرة باسم *الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية* حيث حاول أن يضخ من خلالها اتجاهه المادي الدهري بإنكاره للطابع الغيبي لمعاجز الأنبياء، ويؤكّد فيها بأنَّ النبوة ليست سوي رياضة نفسية يمارسها الإنسان ليستوحي منها بعض المفاهيم، وقد أقدم على تفسير *القرآن* إلى سورة الكهف، وأسّس جريدة باسم *تهذيب الأخلاق*، ليكّرس عبرها رؤاه وأفكاره المنحرفة الدهرية بإطار وصيغة دينية ظاهرية (← البهي، ١٩٧٣: ٢٩–٣٠).

وأما موقف الانتقاء فقد تمثّل بقادة الفكر الإصلاحي الذين أدركوا أبعاد المواجهة، فاستوعبوها وحلّلوها و وقفوا على ما تنطوي عليه من معطيات إيجابية، وانعكاسات وتداعيات سلبية، فرفضوا السلبي منها، متجسداً بالانحطاط الخلقي و التسافل الروحي والتفسخ الأخلاقي، وامضوا الإيجابي منها، متجسداً بإنجازات العلم في حقل الطبيعة. فلم

يكن موقفهم من الحضارة الغربية موقفا ببغائيا ولا متعنتاً بل كان واعياً ومسؤولاً. وكان في طليعة هؤلاء، السيد محمد جمال الدين الحسيني الأسد آبادي، المعروف بالأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧م) من إيران، والشيخ محمد عبده (١٨٤٥-١٩٥٠م) من مصر ومحمد إقبال اللاهوري (١٨٧٣-١٩٣٨م) من شبه القارة الهندية. ولم تتوقف رؤي هؤلاء عند حدود الإعلان المجرد عن الموقف، بل قاموا بترجمتها على واقع المواجهة، من خلال عقد الدروس والمحاضرات، وعبر الكتابة والتدوين، وتنوير الناس لمواجهة الاستعمار ومحاربته والتصدي له، وكذلك في تعريف الناس بإسلامهم، وإشادهم إلى مواطن التلاقي و الافتراق مع الفكر العلماني الجديد، واستنهضوا فيهم الإرادة والعزم، وغرسوا فيهم روح الأمل في تحقيق النصر على عدوّهم، رغم تفرعنه واستعلائه وسطوته (ـــ شمس الدين، ١٩٨٠: ٢٤-٧٢).

٤. البواعث نحو المفهوم المادي العلماني

يمتدّ الاتجاه المادي في نشوئه إلى أغوار التاريخ السحيقة، لأنّ قصة العزوف عن الدين وإعلان التمرّد على تعاليمه، و الدعوة إلى التحرر من قيوده، ومحاولة تطويقه أو الشطب عليه، قديمة، ظهرت مع ظهور الإنسان، وتنامت مع تنامي أهوائه وميوله ومصالحه، متخذة صوراً متعددة وألواناً مختلفة، على اختلاف الشرائط والظروف الموضوعية التي أفرزتها، و*القرآن* شاهد صدق على حالة الكفر والتمرد التي كان الناس يبدوها إزاء حركة الأنبياء التوحيدية. قال تعالى: «وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ» (يوسف: ١٠٦)كما قال: «إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (فصلت: ١٤) أو: «قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْه آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (الزخرف: ٢٤).

وكان آخرها الاتجاه المادي العلماني الذي نشأ إبان عصر النهضة الأوروبية[٢] بين القرون «١٤-١٦» الميلادية. وهكذا ظهرت العلمانية المادية على السطح في ظلّ عدة أسباب، كانت بمثابة الرحم الذي أنجبها، الأمر الذي يستدعي معرفة الأسباب التي بعثت على وجودها في أوروبا أولاً، وفي بلدان العالم الإسلامي ثانياً.

١.٤ أسباب ظهور العلمانية المادية في أوروبا

لايجد المتابع صعوبة في معرفة الأسباب التي أودت إلى ظهور العلمانية المادية في أوروبا، ويمكن إجمال أهمّها فيما يلي:

١.١.٤ الجمود الفكري الكنيسي

يبدو أنّ الجمود الفكري كان سمة مميزة للكنيسة في تعاطيها مع ما تروّجه من أفكار ومعتقدات، فلا تسمح لأحد بمناقشة أفكارها ونقدها، حتى ولو كان المقصود منها هو التعرف عليها من أجل اعتناقها عن بينة و وضوح. فالربّ عندها من حيث الجوهر والحقيقة واحد، ولكنه ذو أقانيم ثلاثه، أي أصول ثلاثة؛ الأب، الإبن وروح القدس. ورغم مخالفة الأبيونون و الأريوسيون وغيرهما من المذاهب المسيحية، لعقيدة التثليث وتأكيدهم على وحدانية الله تعالى، إلّا أنّ الإمبراطور قسطنطين (٢٨٠-٣٣٧م) حسم الموقف في مجمع نيقيا[٣] لصالح دعاة التثليث عام ٣٢٥ م (ـــ الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩: ج ٦، ٩٣)، وقد عُرِف هذا القانون بقانون نيقيا[٤]، حيث فرض على إتباع الديانة المسيحية باقتفاء أثره، وعلى خلافه يتّهم المخالفُ له بالهرطقه والضلال، و هو كما تري دعوة إلى تقليد أعمى في أصلٍ أصيلٍ من أصول العقيدة والإيمان.

ومن الواضح أنّ حالة الغموض والضبابية في طرح المفاهيم، تدفع الآخرين إلى الانكماش عنها، والتحفظ منها، والإعراض عنها، والميل إلى غيرها من البدائل والخيارات الأخرى.

وقد وضع *القرآن الكريم* يده على حالة الخلاف التي سادت في الأوساط المسيحية حول الوهية السيد المسيح وبنوّته لله تعالى، بقوله: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (مريم: ٣٧).

كما فنّد تلك الدعوة المستندة إلى ذريعة أنه مخلوق من دون أبٍ، إذ لو كان ذلك مبرراً كافيا لتلك الدعوي لكان النبي آدم (ع) أجدر بها، لأنّ الله خلقه من دون أب وأمّ. «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (آل عمران: ٥٩).

ومضافا إلى ما تقدّم فقد شجب القرآن هذه العقيدة ودعي إلى توحيد اللّه وعبوديته تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» (النساء: ١٧١) كما قال: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» (الأنبياء: ٢٦) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» (المائده: ٧٢).

وعلى أكبر الظنّ أنّ عقيدة التثليث التي وقع عليها الاختيار في الفكر المسيحي كانت متناغمة مع ميل الإمبراطور قسطنطين الذي كان وثنيا في معتقده على مدي حياته، وأنما آمن بالمسيحية لاحقا بعد تعميده على فراش موته عام ٣٣٧م (ـــ عاشور، ٢٠٠٩: ٤٢-٤٣) وكان من قبل ذلك وثني الاعتقاد ولهذا وجدت عقيدة التثليث طريقها إلى الواقع، بينما أقصيت العقائد الأخرى التي تقاطعت معها، وفي طليعتها العقيدة التوحيدية.

وفي الواقع أنّ الديانة المسيحية الحقة التي جاء بها السيد المسيح براء مما افتراهُ أساقفة المسيحية، فقد تسرّبت عقيدة التثليث المنحرفة إلى الدين المسيحي من الديانة الهندوكية والمتمثلة في: (براهما) الخالق و(فيشنو) الواقي و(سيفيا) الهادم (ـــ وجدي، ١٩٧١: ج ٢، ٧١٠).

ويمكن أن نوعز أيضاً سبب اختيار عقيدة التثليث وتمسك المسيحين بها، إلى روح التعصب والغلو التي سادت العقلية المسيحية، وساقتها إلى هاوية الشرك والضلال، فإنّ حبّ الشي يعمي ويصمّ، كما أنّ بغض الشيء يعمي ويصمّ، إذا لم يؤطرا بأطر عقلية و م يقاما على مباني منطقية. فقد رفع أتباع السيد المسيح من منزلته - بفعل حبّهم له - إلى منزلة الربّ والإله المعبود، كما أنّ المبغضين له حطّوا من شأنه إلى أن آل بهم الأمر إلى إلصاق التهم الرخيصة به وبأمّه القديسة مريم (س). وفي ظلّ القرار الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين فيما يرتبط باختياره لعقيدة التثليث صارت هذه العقيدة ملزمة للجميع بتقليدها، واقتفاء أثرها، ولايحق لأحد مخالفتها أو إثارة النقاش حولها، وإلا كان مصيره الأذى والتشريد ... كما تقدّم قبل قليل.

وعلى خلاف ذلك رفض الإسلام التقليد الأعمي لعقيدة الآباء والأجداد، ودعى إلى تحرير العقول من ربقة الجهل و ظلمات التخلف والتبعية. قال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقره: ١٧٠).

وقد ورد عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله (ص) أنّه ندّد بمن ينظر إلى آيات الصنع الكونية نظرة عابرة بلا تفكّر، و يقرأ قوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (آل عمران: ١٧٠) ولم يتفقه مغزاه، حيث قال (ص): «ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمل فيها» (المجلسي، ١٤٠٣: ج ٦٩، باب٣٨، ٢٤٩).

إنَّ رفض الإسلام للتقليد في أصول الدين ينطلق من رؤيته إلى هشاشة الانتماء العقيدي التقليدي، لافتقاره إلى الرصانة والمتانة والقوة والدوام، وإنَّ صاحبه أشبه ما يكون بريشة في مهب الريح، تأخذه حيث تشاء وحيث تريد.

وكيف يتسَني التمسك بتعاليم دين وأحكام شريعة لم يتم الوثوق بمصادرها ومنابعها الأساسية ولم يجر التثبت من مصداقيتها وحقانيتها، فإنَّ من لوازم الانتماء الديني الرصين، الإيمان بها عن بينة و وضوح ويقين، وهو بلا شكٌ لايتحقق في ظلِّ الجهل وضبابية التقليد الأعمى. والتقليد المذموم قد يكون على شاكلة تقليد الجاهل للجاهل أو من شاكلة تقليد العالم للجاهل، أو حتى من شاكلة تقليد العالم للعالم، فهو مرفوض بجميع صوره لأنّه لاينشأُ عن قناعة و وعي و وضوح، وهو أشبه ما يكون بمن يركض في ظلام.

تجدر الإشارة إلى أنّ ثمة تقليد واع ومنفتح وهو تقليد الجاهل للعالم، وهو محمود ورصين في منطق العقل والعقلاءِ، لأنّه في واقعه، رجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص، كرجوع المريض إلى الطبيب بغية معالجته، فإنّه ناشيءٌ من قناعة المريض بطبيبه الذي انتهى إلى تقليده في الأخذ بنسخته الدوائية، وهو ما نلاحظه في تقليد عوام الناس لمراجع الدين في مجال استنباط الأحكام الشرعية، للعمل بها، وهو في جوهره تقليد في فروع الدين، لا في أصول الدين.

وقد سُمَّيت هذه الأحكام بفروع الدين، لأنها متفرعة عن أُسس عقيدية مستندة إلى قناعات محكمة لايتسربُ إليها شكٌ أو ترديد، وهي التي تسمى بأصول الدين، لأنّها بمثابة

القواعد والأسس التي تبتني عليها فروع الدين، ضمن خارطة طريق لها مبدأٌ ومعادٌ وطريق موصل بينهما، في منظومة متكاملة تتكفل رسم الخُطى وتأمين سعادة الدنيا والآخرة. قال تعالى: «قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ» (يوسف: ١٠٨) و «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْديهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ» (المائده: ١٥-١٦).

وعوداً على بدءٍ فانَّ الجمود الفكري الذي حرَّك الكنيسة في مختلف مواقفها، ساقها إلى نهاية مرّة، وهي الانزواء والإقصاء عن مسرح الحياة لأنّ النهجَ المعوَّجَ والمشوّه لا يسوق إلا إلى نتيجة مِعوَّجة ومشوهة، ولا يكون الخطأُ في يوم من الأيام صحيحاً، كما أنّه لايصحّ إلا الصحيح.

٢.١.٤ طغيان الكنيسة وانحرافها

إنّ المفاهيم المشعة والدعوات الإصلاحية التي رفع لواءها الدين، أهَّلته أن يحتلّ مكانة مرموقة بين الناس، باعتباره داعياً للتي هي أحسن. إلّا أن طغيان بعض المؤسسات الدينية وانحراف بعض المنتسبين إليها والمتحدثين باسمها، قد ألقي بظلاله القاتمة على سمعة الدين، وأفقده رصيده ونفوذه الواسع بين الناس.

فقد ارتدّ الناس في أوروبا عن الدين وأعرضوا عنه، ومالوا إلى الاتجاهات المادية التي تتقاطع معه، على أمل أن يجدوا فيها مخلصهم، بعد أن يئسوا من رجال الكنيسة الذين خيبوا ظنّهم في الدين. وهو إفراز طبيعي لكلّ مشروع إصلاحي تتناقض فيه الأقوال مع الأفعال، ويتعارض فيه الشعار مع التطبيق، بفعل الهوّة الفاصلة التي توجد بينهما مما يجعلها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. قال تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ» (الصف: ٣).

ومن أجل إماطة اللثام عن الطغيان والانحراف الذي مارسته الكنيسة ورجالها نذكر نماذج منه:

١.٢.١.٤ صكوك الغفران

أسلوب اعتمدته الكنيسة الكاثوليكية لغفران ذنوب أتباعها إزاء مالٍ يدفعونه لها، مستهدفة – في بدو حركتها – مساعدة الفقراء، والمراكز الخيرية، ودور العبادة، وتمويل حروبها المقدسة، إلا أنها تحوّلت – بمرور الزمان – إلى طريقة لمليء الجيوب و الثراء الشخصي على حساب المحتاجين الذين تنقصهم أدني سبل العيش، مما أساء ظنّ عموم الناس برجال الكنيسة و ألبهم عليهم، الأمر الذي دفع بثلة من القسيسين من أمثال مارتن لوتر (١٤٨٣–١٥٤٧م) إلى معالجة الموقف بتقديم ورقة إصلاحات كان من بينها الدعوة إلى إلغاء صكوك الغفران، وإناطة غفران ذنوب الناس إلى استغفارهم وشعورهم بالندم على ما اقترفوا، دون حاجة إلى أخذ المال منهم وتوسط الكنيسة لاستحصال غفران الله تعالى لهم (← الموسوعة البريطانية، صكوك الغفران).

ولايشكّ أحد من أهل الأديان في رحمة الله وغفرانه وتوبته لعباده، قال تعالى: «غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» (المؤمن: ٣) و«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» (ص: ٦٦).

ولامواربة أيضا في أنّ الصدقة والإنفاق في سبيل الله مدعاة لتطهير النفوس وتزكيتها. قال تعالى:

> وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌرَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (التوبه: ١٠٢–١٠٤).

كلّ ما تقدّم لاريب فيه ولاغبار عليه، إلا إنّ الدعوة إلى الغفران انحرفت عن مقصدها لتكون سيناريو يهدف إلى تحقيق مصالح فردية، ومنافع فئوية بواجهة الغفران الدينية، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنّ التوبة ليست سلعة تباع وتُشترى ولا ينالها كلّ من هبّ ودبّ كائنا من كان، بلاقيود ولاحدود، فإنّ الكفر والإصرار على الفسوق والعصيان يحجب غفران الله تعالى حتى ولو كان المطالب به سيد الكائنات والمرسلين. قال تعالى: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (التوبه: ٨٠).

وقد أجمل أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع) شروط التوبة والغفران، حينما سمع قائلا بحضرته يقول «استغفرالله» حيث انبرى إليه بالقول: «ثَكِلَتكَ أُمّك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود عليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضّيعتها فتؤدي حقها والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول:استغفرالله (نهج البلاغه، ١٤٢٦: الحكمة ٤١٧).

وعلى هذا الأساس تعطي التوبة ثمارها، لأنها وسيلة تصحيحية لمسيرة العاصين بعد استقطابهم وترغيبهم بالغفران للسير على سواء السبيل، ويتحقق في ظلّها الإصلاح والأمن الاجتماعي. ومن هنا نفهم بوضوح كيف انعكست النتائج التي أطلقتها الكنيسة للدعوة إلى التوبة بصكوك غفرانها، بعد أن أدرك الناس المآرب التي تقف وراءها والأهداف التي تنتهي إليها، مما بعث على خروجهم من دينهم أفواجا وأفراداً، ونفهم إلى جانب هذا أيضا أنّ باب التوبة مفتوح أمام الجميع، إلا أنّ غفران الذنوب مختص بالله تعالى ولايشاركه فيه أحد سواه كائنا من كان، كما أنّ الغفران منوط بشرائطه وقيوده، فلا معنى له بدونها.

٢.٢.١.٤ محاكم التفتيش

وعلى خلفية الجمود الفكري الذي ساد في العقلية المسيحية، أخذت الفواصل بالاتساع بين رجال الدين المسيحي والطبقة المثقفة التي تصبو إلى معرفة الحقيقة وتطمح إلى تحصيليها، عبر تساؤلات وشبهات وأثارات حول عدد غفير من المتبنيات الكنيسية، حيث لم تلق من البابا وأعوانه سوي تهمة الكفر والزندقة، ومن ثم التصفية الجسدية والموت المحتم. فليس لأحد حقّ الاعتراض على ما تطلقه الكنيسة وتؤمن به من أفكار ومعتقدات، بل وحتى ما تتبناه

من نظريات علمية خاطئة لبعض الظواهر الكونية، رغم استقائها من منابع بشرية، أثبت العلم بطلانها وزيفها!

ولما لم تجد الكنيسة في نفسها القدرة على مواجهة الفكر بالفكر، والشبهة بالحل، لجأت إلى خيار العنف والبطش في مواجهة مناوئيها، وتحوّل التطور العلمي والنقد الفكري بالنسبة إليها إلى شبح مرعب يقضّ مضاجعها، ويشغل بالها، فأنشأت محاكم التفتيش لتقنين تصفيتها للمخالفين لها والقضاء عليهم. ومحاكم التفتيش عبارة عن هيئات أنشأتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية للقبض على المخالفين لتعاليم الكنيسة ومحاكمهم بتهمة الهرطقة والمروق. وكانت محكمة التفتيش الإسبانية الأكثر شهرة من بين المحاكم التفتيشية الأخرى، وكانت المحكمة التي أقامها فرديناد الخامس وزوجته ايزابيلا معروفة بالتجسس على أهل الأندلس، والتنكيل بالمسلمين بوحشية (*الموسوعة العربية العالمية*، ١٩٩٩: ج ٢٢، ٣١٨). وبلغ الوضع المأساوي الذي أوجدته محاكم التفتيش درجة، أنّ بعض المؤرخين اعتبر ما قامت به الكنيسة على هذا الصعيد من أداء، جريمة لا تُغتَفَر (ول دورانت، ١٩٨٨: ج ٢١، ٨٦). وكان تأسيس محكمة التفتيش – في القرن الثالث عشر الميلادي – مقترنا بولاية البابا (إنوسنت الثالث) الذي استغلّ مراكز القوة والبطش، لتوسيع دائرة العقوبة والتصفية الجسدية لمخالفي الكنيسة: بعد أن كانت مقتصرة على جريمة الكفر والإلحاد (ــــ ويلز، ١٩٩٤: ج ٣، ٩٠٨-٩٠٩).

وعلى أغلب الظنّ فإنّ في طليعة الأسباب التي دعت إلى تاسيس محكمة التفتيش والاعتماد على سياسة القبضة الحديدية، هو اهتزاز أرباب الكنيسة وعدم وثوقهم بمعتقداتهم إذ لو كانوا قادرين على حلّ الشبهات والإجابة على التساؤلات والاعتراضات باداة فكرية استدلالية لفعلوا، ولما احتاجوا إلى أداة البطش والفتك بالمخالفين التي تكلّفهم ضريبة باهضة. وهكذا كان خيار التصفية والعنف معبرا عن حالة هزال مستشري في كيان المسيحية المحرَّفة ومفصحاً عن هزيمة نكراء أمام مارد العقل الذي خرج من قمقمه بعد سبات طويل، واضعا تساؤلاته وتحفظاته إزاء كلّ فكرة أو موقف أو قناعة تتقاطع مع أسسه الثابتة وقواعده المسلمة.

٣.٢.١.٤ الطغيان المالي

وعلى خلاف ما عرف عن الدين المسيحي من تعاليم الزهد والعزوف عن الدنيا، كما ينقل ذلك عن السيد المسيح (ع) قوله: «الحق أقول لكم: إنّه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماء، أقول لكم: أيضا إنّ مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت الله» (*إنجيل متي*، الفصل ١٠: آية٣٠).

إلا إنَّ واقع رجال الكنيسة كان على النقيض منه، فقد سخَّروا العوائد المالية المسجلة باسم الكنيسة لخدمة مصالحهم الخاصة، فبدلاً من أن يقتصر صرف هذه الأموال على الشؤون الخيرية كإغاثة الفقراء والمعوزين، وبناء المشاريع ذات النفع العام كبناء المدارس والمستشفيات، والقناطر والجسور، ودور اليتامى والعجزة ... صارت سبيلاً لملء الجيوب والبطون، والتهالك على حطام الدنيا الزائف، والإمعان بالانغماس في الشهوات والملذات، واقتراف المنكرات والمحرمات، كإفراز طبيعي لحركة الاعوجاج التي بدأوا بها مسيرتهم (ــــ ول دورانت، ١٩٨٨: ج ١٤، ٤٢٨).

وهكذا تحوّلت العائدات المالية[٥] بالنسبة إلى أرباب الكنيسة إلى مصدر كسب وربح يدرّ عليهم بالنفع والفائدة. وقد كان لطمع رجال الكنيسة تداعياته السلبية على واقع الحياة، حيث انسلخ الناس بتاثيره عن ثوابتهم العقيدية، وتنصلوا عن ضوابطهم السلوكية، بعد أن وجدوا المكر والحيلة والخبث والزيف تحيق بمن يتقمّص الصلاح والإصلاح زورا، ويتبرقع بثوب العلم والعمل الصالح كذبا.

٤.٢.١.٤ مساندة الكنيسة للظلم

أصبحت الكنيسة –كما تقدّم – من كبار المتمولين، بفضل ما تمتلكه من أراضي وقفية، وموارد مالية أخرى، وكانت مسخّرة في المصالح الشخصية للبابوات وأعوانهم، بدلا من تسخيرها للصالح العام، وكان ذلك إبان القرون الوسطى، التي ساد فيها النظام الإقطاعي[٦] المتغطرس، وكانت الكنيسة بحكم ما تمتلكه من أراضي زراعية واسعة – داخلة في فلك النظام الإقطاعي السائد آنذاك، بل من أشدّ المدافعين عنه، لأنها مرتبطة معه بمصير مصلحي مشترك واحد، بقاء وفناء.[٧]

واشتراك الكنيسة مع الاقطاع في هدف واحد ناشيء من أنّ ارباب الكنيسة كانوا من كبار الإقطاعيين، بما يمتلكونه من أراضي زراعية واسعة وطاقات بشرية هائلة مسّخرة لخدمتهم ومحققة لمصالحهم، ومنفذة لأوامرهم. ومن أجل ذلك لم تتوان الكنيسة الغارقة بالإقطاع عن الوقوف أمام الثائرين، مدافعة عن ظلم الإقطاعيين وعبثهم بمقدرات الناس وكرامتهم، ولم تدّخر جهداً من الصاق التهم الرخيصه بالثائرين ضدّ النظام الإقطاعي المستبد، ولم تتورع عن الوقوف في صف واحد مع الظالمين ضدّ المظلومين، بل أخذت تبرر الظلم وتلبسه ثوب الحق مقلوبا.

إنّ أدني مراجعة للأديان السماوية الحقة، وفي طليعتها الدين الإسلامي الحنيف، تدلّنا بوضوح إلى أنّ الدين الحق بريء مما تلوكه أشداق البابوات من افتراءات لاتمت إلى الدين القويم بصلة. فقد ندّد الدين الإسلامي بالظلم وحذّر منه ودعا إلى منابذته والتصدي له، وهل يعقَل أن يؤلب الدين – إذاكان ظالما – الأجواء ضدّه، ويدعو المظلموين إلى محاربته. قال تعالى: «وَلاتَرَكَنوا إلى الذينَ ظَلَموا فَتَمسِكُم النّار» (هود: ١٣) و «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» (الفرقان: ٢٧) و«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (البقره: ٢٥٨) و«إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (يوسف: ٢٣) وقال النبي (ص): «إياكم والظلم فإنه يخرّب قلوبكم» (كنز العمال: ٧٦٣٩) وقال أميرالمؤمنين علي (ع) وهو الرجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله (ص) موصياً ولديه الحسنين (ع): «وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَ لِلْمَظْلُومِ عَوْنا» (نهج البلاغه، الكتاب ٤٧) وعنه (ع): «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب سعيرة ما فعلته» (نهج البلاغه، الخطبة ٢٢٤).

ونحن في الوقت الذي نسجل فيه مؤاخدتنا على الكنيسة في تبريرها للظلم والفساد، الذي ساد في القرون الوسطى، لاندّعي نسبة ذلك إلى المسيحية الحقة التي صدع بها السيد المسيح (ع) لأنّ الدين الأصيل ينأي بأتباعه عن كلّ لون من ألوان التعسف والانحراف والظلم، ولا يخرج الظلم عن كونه بدعة يبتدعها الخارجون عن الدين، وإن تنوعت عناوينهم ومسمياتهم، ومذاهبهم ونحلهم وأديانهم. ولكن يبقى السئوال عن الفارق الذي يميز ما يقتطعه

الحاكم الإسلامي من الأرض لغيره بهدف إحيائها عن الإقطاع الذي كان متداولاً في القرون الوسطى، والذي حضي بمباركة الكنيسة له؟

والجواب على هذا السئوال هو: أنّ الإسلام يرى في الأرض وما فيها وما عليها من موارد طبيعية ملكا لله، ولا يشترك في ملكه أحدٌ سواه، وينتقل اختيار التصرف فيها إلى النبي أو من ينوب عنه، بما لهما من موقع ولائي ومنصب حكومي، فيتصرفون بها على ضوء المصالح العامة التي تدر على الأمة نفعا وفائدة، فالحاكم الإسلامي يقطع الأرض ويوزعها على الفلاحين بغية إحيائها أوّلا، وزراعتها ثانيا، وحينها يكون للفلاح الحق في الأرض، ولايجوز لغيره انتزاعها منه.

وبما أنّ للأمة الحق في الأرض التي تُقتَطع للفلاح، فلابدّ للفلاح من تسديد ضريبة مالية تسمّى بالخراج[٨]، يتمّ صرفها في الاستشمارات التي تصبّ في الصالح العام، من بناء الجسور والمستشفيات وتعبيد الطرق وإنشاء المراكز العلمية والمدارس و الجامعات ونفقات الجيش والشرطه والموظفين، وسائر الخدمات العامة التي لها شأن في تحسين وضع الناس وإنعاش حياتهم.

ومما سلف يتضح الفارق الجوهري بين الإقطاع الذي كان سائدا في أوروبا، وبين اقتطاع الحاكم الإسلامي الأرض للفلاح من أجل إحيائها وزراعتها، لأنّ الأول يصبّ في المصالح الشخصية، والفردية للملك أو الأمير أو الإقطاعي على حساب الفلاح الذي تُصادَر حقوقه، ويحكم عليه بالفقر والحرمان وشظف العيش، وتسرق نسبة كبيرة من المصالح العامة لتدخل في جيوب عدد معدود من الناس، بينما يصبّ الثاني في مصبّ تحقيق المصالح العامة ومصالح الفلاح على حد سواء، وليس للحاكم أو القيمين على إدارة الأمور إلا دور الاستخلاف وتنفيذ الأحكام الإسلامية وصولا إلى الصالح العام (← الصدر، ١٤٣٠: ٥٦٥-٥٧٤).

٥.٢.١.٤ التحريف في فصل الدين عن الحياة

لم يتوقف التحريف الذي أدخله رجال الكنسيه عند حدود عقيدة التثليث، بجعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم وتاليه عيسي و دعوي بنوّته لله تعالى وتاليه السيدة مريم (س) وروح القدس (ع) بل تعداه إلى حجب الشريعة الإلهية عن الحياة، وفسح المجال للقانون الروماني كي يحكم بين الناس بدلا من الاحتكام إلى شرع الله وقانونه، مدّعين في أناجيلهم

أنّ السيد المسيح (ع) هو الذي دعا إلى ذلك، استناداً إلى قصة تناقلتها بعض أناجيليهم: «ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه (أي السيد المسيح (ع)) بكلمة تلاميذهم من الهردوسيين قائلين: يا معلم إنك صادق وتعلم طريق الله بالحق و لاتبالي بأحد، لأنك لاتنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظنّ أيجوز أن تعطي جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم و قال: لماذا تجربونني يا مراءون؟ أروني معاملة الجزية، فقدموا له دينارا فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا لقيصر فقال لهم: أعطوا إذن مالقيصر لقيصر وما لله، لله فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا» (*إنجيل متي* ٢٢: ١٤-٢٣).

ولنا أن نتسأل كيف يدعو السيد المسيح إلى تحكيم قانون بشري وهو الذي أمضي شريعة التوراة وأحلّ لهم بعض ماحُرِّم عليهم فيها ودعاهم إلى العمل بها؟ وهل من الصحيح حصر الدين في زاوية تنظيم علاقة الفرد بربّه وبرمجة عباداته وأذكاره، وحجبه عن أداء دوره لقيادة حياة الإنسان في مختلف مجالاتها.

وكيف يعرَضُ عن تشريعات الله وقوانينه التي صدع بها النبي عيسي (ع) والنبيون من قبله لتنظيم الحياة، والميل إلى ما سواها من القوانين والدساتير الأرضية؟! ألا يعني هذا إلا الكفر بدين الله: «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (المائده: ٤٤-٥٠).

ومن الواضح أنّ دعوي كهذه لايمكن الإذعان بها بقصة عابرة دون النظر بإمعان إلى أبعادها، والدقة في ملابساتها وظروفها التي أحاطت بها، للتأكد من صواب ماتم استنتاجه منها، مع فرض التسليم بوثاقة النقل، إذ قد تكون القصة حادثة في واقعة، تحمل خصوصية تمنع من تعميمها على بقية الحالات. وهل من الحكمة التبشير بديانة متضمنة لتشريعات حياتية كاملة، والدعوة في نفس الوقت إلى حظر تدشينها، والرجوع إلى ما سواها من تشريعات وقوانين. وقد يبرر البعض تجميد العمل بالقانون الإلهي في القرون الثلاثة الأولي باضطهاد الإمبراطور الروماني لرجال الدين المسيحي، الذين رفضوا تأليهه.

ومن الواضح أنّ اضطهاد الإمبراطور لرجال الدين المسيحيين، حالة مقطعية لاتبرر تجميد القانون على طول الخط، إكان على الكنيسة استغلال فرصة اعتلاء قسطنطين الأول لعرش

الحكم واستثمارها لإعلان ميلانو عام ۳۱۳ م، الذي منح فيه الملك الحرية الدينية، فقام رجال الكنيسة باستغلالها للتبشير الديني، والدعوة إلى اعتناق المسيحية[٩]، إلا أنّهم أهملوا الجانب الأكثر أهمية، وهو الدعوة إلى تنفيذ الأحكام الإلهية، متذرعين -كما مرّ - بأنّ السيد المسيح (ع) قد فوّض ذلك إلى الحكام، وبذلك أضفوا الشرعية على قيصر فيما يصدر عنه من أحكام بغير ما أنزل الله.

وكيف، تُهمَل تعاليم دين الله، وتكون جزءً من الماضي المنسي رغم تأكيد الأنبياء والمرسلين على إقامتها والعمل بها لتجسيد العدل والقسط، وبناء الحياة بناءً سليما، والأخذ بأيدي الناس إلى الأهداف الكبيرة، في ظلّ حياة هانئة طيبة. قال تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (الحديد: ٢٥) و «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» (أنفال: ٢٤).

وعلى خلافه يتحوّل الدين إلى اسم على غير مسمّي وعنوان بلا معنون، وكيان يعجز عن الحركة، ولا يتمكن من التحريك، وأنّي له ذلك وهو مفتقر إليها. فلابدّ من التريث في تفسير النصوص الدينية والتاريخية، والتأني في تحليلها، والتنصل عن حالة الجمود في فهمها واستيعابها، تجنبا من حالات التهافت والاصطدام مع الثوابت العقلية والمسلمات النقلية. والقصة التي تناقلتها الأناجيل المسيحية من هذا القبيل، كونها متقاطعة مع ماتقدم من مسلمات، مما يدعو إلى دراسة ظروفها الموضوعية وتسليط الضوء عليها لمعرفة ماوراء ها من معاني وأهداف. و لا يجد المتأمل في هذه القصة صعوبة لتحليل الموقف الذي اختاره السيد المسيح (ع) – على فرض صحّة ما نقل عنه – من أنه كان في أجواء تقية فرضت عليه إعلان موقف تكتيكي يمتصّ من خلاله نقمة قيصر ومكره، ويموه عليه الأهداف التي خطط لتحقيقها، خصوصا وأنه كان يعيش في ظروف بوليسية مكهربة، وتحت مجهر العدو ومتابعاته، وهو ما تدلّ عليه القصة بكلّ وضوح.

٣.١.٤ حركة الإصلاح الديني

وكنتيجة للأداء السيء لرجال الكنيسة، وتراكم الأخطاء والمضاعفات الناجمة عنها، وتزايد السخط الشعبي ضد الكنيسه، ظهرت حركة الإصلاح الديني، مطالبة بالتغيير، وكان في

طليعتها الحركة التي حمل لوائها مارتن لوثر[١٠] (١٤٨٣-١٥٤٦م) وعرفت بالحركة اللوثرية، التي قام على ركائزها كيان المذهب البروتستانتي وهو أحد المذاهب الرئيسية الثلاثة[١١] للديانة المسيحيه.

إنّ محور الدعوة الإصلاحية البروتستانتية يرتكز على الرجوع إلى الكتاب المقدس مجرداً عن كلّ الاجتهادات والآراء الصادرة عن رجال الكنيسة، فليس من حق الكنيسة تنصيب نفسها مرجعا أوحديا لتفسير الكتاب المقدس، بل إنّ لكلّ شخص التفكير في فهمه، والإحاطة به، واستنباط أحكامه وتعليماته منه. فلم يعد تعليم الكتاب المقدس وتفسيره وبيان المراد منه وقفا على الكنيسة، بل هي مع أيّ فرد في ذلك شرع سواء.

وبهذه الدعوة فُتح الباب على مصراعيه أمام العقل الفردي لينطلق في تأمله بلا حدود ولا قيود، وعُبِّد الطريق لتأسيس الهرمنوطقيا أو ما يسمي بعلم التأويل، مما يعني شرعنة الفهم الشخصي للأفراد في تفسير الكتاب المقدس وتلوّن أفكارها، لأنّ فهم كلّ شخص يختلف مع الآخرين تبعا لاختلاف الأذواق والميول والثقافات والتقاليد والمحيط ... مما يفرض تنوعها وتقاطعها في تفسير الكتاب المقدس وتأويله (ــــ بيات، ١٣٨١: ٩٥-١٠٠). وفي هذا الاتجاه خاض أيضاً جان كالفن[١٢] (١٥٠٩-١٥٦٤م) غمار الإصلاح الديني ودعا المذهب الكاثوليكي إلى إصلاح أوضاعه، وتصحيح مسيرته. وقدعرف كالفن بانتمائه البروتستانتي، إلا أنّ تعاليمه وآراءه أفرزت المذهب (الكلفيني).[١٣]

و واضح أنّ حالات الاصطكاك والتعارض بين أطياف الدين الواحد، أو أية تشكيلة مهما كان طابعها، تبعث على الوهن، والاهتزاز، والانهيار أحيانا، مما يوفر فرصة خصبة للمناوئ أن يشقّ طريقه، ويحقق أهدافه ومآربه، وهو ما توفّر بالنسبة إلى العلمانية التي طرحت نفسها بديلا عن الكنيسة التي فقدت هيبتها ورصيدها الجماهري بفعل حركة الإصلاح التي كشفت عن معايب المؤسسة الكاثوليكية المسيحية.

كما أنّ الدعوة إلى الاستقلال عن البابا في فهم كلّ فرد للكتاب المقدس، التي رفعت رايتها حركة الإصلاح اللوثريه والكلفينية مهّدت لتأسيس أصالة العقل (Rationalism) التي تعد عنصراً مهما من عناصر التكوين الفكري للعلمانيه.

٤.١.٤ تقديس الحس والتجربة

ومما ساعد على ظهور العلمانية في اتجاهها المادي المفرط، هالة التقديس التي أضفاها الأوروبيون على الحس والتجربة، بفعل الفتوحات الكبري التي أنجزتها الأداة التجريبية على الصعيد العلمي، حيث جعلوا الحس والتجربة والمختبر مقياسا وحيدا لقبول الحقائق أو رفضها.

وبذلك احتلت التجربية الحسية مكانة لم تخطر على بال أحد واكتسحت من أمامها مقياس العقل الذي كان محوراً و مرجعاً في حل الأمور وفصلها، خصوصا فيما يرتبط بالمجال الغيبي والمسائل الميتافيزيقية، مما بعث على اهتزاز الدين، و ضعف مكانته الاجتماعية، وأتاح في ذات الوقت للأفكار المادية أن تشقّ طريقها، وتضفي على الحياة طابعا مادياً، بعد انتحالها مذاهب حسية صرفة (ــ الصدر، ١٣٤١: ٢٦). ولم يكن الميل إلى الاتجاه الحسي بالنسبة إلى عموم الناس ناتجاً عن دراسة وعمق في الاختيار، بل كان معبّراً عن موجة عاطفية أفرزتها التحولات المهمّة على الصعيدين الاجتماعي والعلمي.

٥.١.٤ التشوّش الفكري

كما أثر التشوش الفكري الناتج عن تقاطع الأراء وتضاربها سلبا على مستوي الوثوق بمسلمات الماضي، بجميع ألوانها و اتجاهاتها، بما فيها المفاهيم التجريبية والقيِمية والأخلاقية.

ومن أمثلة التناقض والتضارب في الآراء ما أثبته كوبر نيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) في تابعية الأرض للشمس الذي خالف به بطليموس (٩٠-١٦٨م) الذي كان يري العكس، وكانت الكنيسة تتبني رأيه، كما أنّ غاليلو (١٥٦٤-١٦٤٢م) أثبت كروية الأرض وخالف بذلك القديس توماس الأكيوني (١٢٢٥-١٢٧٤م) وغيره من القديسين. وبذلك ظهرت السفسطة بثوب جديد ولفّت زوبعة الشكّ الثوابت البشرية المقدسة بما فيها التعاليم الدينية (ــ المصدر نفسه: ٢٦)، على خلفية عصر النهضة الأوروبية والانقلاب الصناعي الذي تلاها.[١٤]

٦.١.٤ دور اليهود

يمثل اليهود أقلية ضئيلة في العالم[١٥]، إذا ما قارناهم بأتباع الأديان الأخرى، ولهذا السبب ولأسباب أخرى لسنا في صدد بيانها، تهمش وجودهم، وصاروا محطا للنبذ والتحقير على

طول التاريخ. قال تعالى: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ» (آل عمران: ١١٢) و«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» (الأعراف: ١٦٧).

وقد حاول اليهود استثمار اختلاف عامة الناس مع الكنسية، فأقدموا على تعميقه، وعملوا على توسعته، وسعوا إلى الاصطياد في الماء العكر، وبادروا إلى دعم ومؤازرة كلّ مشروع أو حركة مادية لادينية تناهض الكنيسة، وهو ما تؤكده بروتوكولاتهم[١٦]، المعروفة ببروتوكولات شيوخ صهيون[١٧]، محاولة منهم لتجريد الناس عن عناصر قوتهم وتماسكهم المتمثلة بقيمهم و ضوابطهم الدينية، واستبدالها بمفاهيم مادية ونفعية صرفة، حتى لايبقى لغير اليهود ما يميزهم عليهم فيالدين والمكانة الاجتماعية، وسعيا إلى إضعافهم بغية السيطرة عليهم، وامتلاك زمام أمورهم، وإلزامهم بخياراتهم ومخططاتهم.

٢.٤ أسباب ظهور العلمانية المادية في العالم الإسلامي

كان الغزو العلماني الفكري لبلادنا الإسلامية نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، – فيما سمي بالحملات الاستعمارية – في تداعياته السلبية أشدّ فتكا ودمارا من سابقه الصليبي (٤٨٩–٦٩٠هـ/ ١٠٩٦–١٢٩١م) لاستيلائه على الأفكار والعقول وتطويقه للقيم والمفاهيم، وهو ما يحقق للغازين – على الدوام – احتلال الأرض عبر سلب خيراتها بأيسر الطرق وأقلها كلفة. ومن هنا نجد أنفسنا ملزمين للبحث عن العوامل والثغرات التي وجد الغزات فيها منفذا لتمرير مؤامراتهم وتنفيذ خططهم، وصولاً إلى مأربهم وأهدافهم الشيطانية، لنتوقي من تكرارها في الحاضر والمستقبل إنشاء الله تعالى، وإليك ذكرها مجملة.

١.٢.٤ الاستعمار

واحد من عوامل نفوذ العلمانية في بلادنا الإسلامية. وهو كما يبدو من جميل لفظه، يعني العمران لغة[١٨]، اتخذه الغزاة واجهة لتبرير احتلالهم لأراضي الأمم والشعوب، إلا أنهم اصطدموا بالإيمان والمشاعر الدينية، والتقاليد والقيم الأصيلة، التي حالت دون استمرارهم، فأدركوا بأنّ

القيم الدينية والثوابت الأخلاقية سدّ منيع يكبح جماح طمعهم، ويحد من غلواء جشعهم، كما أدركوا بأنّ *القرآن الكريم* يمثل مركز ثقل المسلمين، وصمام أمانهم، كما ألمح إلى ذلك غلادستون[١٩] (١٨٠٩-١٨٩٨م):

> لقد رفع غلادستون رئيس وزراء بريطانيا العظمى *القرآن* في مجلس العموم، وصاح غاضبا: مادام هذا الكتاب في أيدي الشرقيين فالخطر يواجه استمرار سيطرتنا في أسيا وإفريقيا (النقوي، ١٤١٨: ١٨٨-١٨٩).

ومن الواضح أنّ استتباب الأمور بالنسبة إلى المستعمرين يتوقف على تنفيذ سياسة التطويع لهذه البلدان، الأمر الذي يستدعي اختزال عناصر قوتها واستبدالها بمنتوج فكري يتناغم مع أهداف الغزاة، ويحقق مصالحهم. والفكر العلماني ينفذ ما تقدم بدقة وأمان.

٢.٢.٤ استبداد الحكّام

وهو من جملة قنوات التسويق للفكر العلماني المادي، وسبيلا سهلا من سبل نفوذ الاستعمار الجديد، لافتقار غالب المستبدين إلى تأييد جماهيرهم، ما يبعث على لجوئهم إلى قوي أجنبية تحميهم من ملاحقة وعقوبة شعوبهم لهم، على أنّ يدفع الحكام المستبدون ثمن ذلك، بفتح الباب على مصراعيه أمام الغزاة الأجانب، للسلب والنهب، والعبث بمقدرات الشعوب، مما يستلزم اجتثاث العناصر المكونة لقوة وصلابة هذه الشعوب والباعثة على مقاومتهم، المتمثلة بالمبادي الدينية، والقيم الأخلاقية، والثوابت الوطنية، واستبدالها بالفكر المادي العلماني. وهكذا وجد الغزاة، في المستبدين من الحكام، حارسا لمصالحهم وضامنا لمنافعهم، ومروّجا لمفاهيمهم وإيديولوجيتهم المادية.

٣.٢.٤ طلاب البعثات الدراسية

ويعتبر هذا العامل من العوامل المهمة في نقل الثقافة الغربية إلى بلدان العالم الشرقي والإسلامي بنحو خاص، بعد أن بهرتهم ظواهر وقشرية الثقافة الغربية المادية خصوصاً وأن غالب الموفدين إلى بلاد الغرب تنقُصُهُم الخبرة الاجتماعية، والعمق العلمي، كونهم شبابا في مقتبل العمر.

وعاد هؤلاء إلى بلدانهم، فأصبحوا أبواقا للثقافة الغربية وتغلغوا بصوره مؤثرة في المدارس والجامعات والقنوات الإعلامية و الخبرية والمراكز الثقافية المتنوعة، وضخّوا في الناس روح الهزيمة والذلّ والتبعية أمام بلاد الغرب عبر صحفهم ومنشوراتهم، و من خلال السينما والمسرح والقصة، داعين إلى تقليده، واقتفاء أثره، واتباع سيرته، والعمل بآرائه ونصائحه، كما أنهم أمعنوا بالطعن في الإسلام ونبيه المكرم (ص) و*القرآن الكريم*، مدَّعين بأنّ التعاليم الدينية قد أكل عليها الدهر وشرب، وصارت جزءاً من الماضي، بعد أن استنفدت أغراضها، وأنّ العمل بها داعية إلى الجهل والتخلف والانحطاط (ــــ المصري، ١٤٣٣: ١٣٨-١٣٩).

٤.٢.٤ غياب النخب الصالحة

ومما عبّد الطريق أمام الفكر العلماني ليأخذ مجاله في بلداننا الإسلامية، غياب النخب الصالحة عن أداء دورها التغييري، و تسنم الرموز المائلة والمنحرفة قيادة الحياة. وانحسر – على أساس ماتقدّم – دور النخب الفكرية الصالحة في دائرة المسجد والنشاط الفردي المحدود، وبقيت مصائر الناس السياسية والاقتصادية والثقافية ومساحة واسعة من الحياة الاجتماعية تحت رحمة الطغاة ومن لفّ لفهم، يختارون لهم ما يريدون ويفرضون عليهم ما يشاؤون. وكان الفكر المادي العلماني مختارهم الأمثل حيث مهّدوا له ودعوا إليه، لانسجامه مع ميولهم وتناغمه مع أفكارهم.

٥.٢.٤ ظهور المذاهب الفكرية والعقيدية المنحرفة والمتخلفة

كان أيضاً من جملة العوامل التي مهّدت لنفوذ، العلمانية في بلادنا الإسلامية، وساعدت على أعراض الناس عن التمسك بالدين، كالمذهب الوهابي، الذي عاث في الأرض فسادا وأهلك الحرث والنسل، وشقّ عصا المسلمين وشتّت صفومهم، و كفّر من خالفه منهم، وأقدم على تشريدهم وذبحهم ذبح النعاج[٢٠]، ليوحي إلى الجميع بأنّ الإسلام دموي التعامل، ظلامي الفكر، لايرقي إلى منزلة التقديس والاحترام فضلا عن أن يكون منهجا لتنظم الحياة ورقيها.

ومضافا إلى المذاهب الفكرية المنحرفة، فقد ساهمت بعض الاتجاهات السلوكية الشاذة في تشويه وجه الإسلام الناصع و الإساءة إلى سمعته، كالصوفية، والدروشة[٢١]، وكبعض النماذج والأساليب المتطرفة لإحياء بعض المناسبات الدينية ... والتي بعثت وتبعث بمجموعها النفرة والتقزز في النفوس إزاء كلّ ما يمت إلى الدين بصلة، خصوصا عند من يقَيم الأشياء بظاهرها، ولايميز بين سقيمها من سليمها وخطئها من صوابها.

٦.٢.٤ الأقليات الدينية

ومضافا إلى كلّ ما تقدم فقد كان لبعض الأقليات الدينية كالمسيحية تأثير أيضا في تسرّب الفكر العلماني المادي الغربي إلى بلداننا الإسلامية لاستشعارهم بأنهم امتداد للديانة السائدة في بلاد الغرب، وأنّ الأوروبيين بالنسبة إليهم حصن منيع يحمون به أنفسهم من ضغط الأكثرية المسلمة، وبذلك تحوّلوا إلى أداة لترويج الثقافة الغربية والفكر العلماني، بالتمجيد لسيرتهم، والتحميد لفكرهم، والتأقلم معهم، واللحاق بركبهم.

ومن هنا فقد صبّ الغربيون اهتمامهم بهذه الشريحة لتكون وسيلتهم في تنفيذ مخططاتهم، فعملوا على استقطابهم في مدارس إرسالياتهم بغية تنظيمهم بما يخدم مصالحهم، وهو ما أعلنه نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م) في طريقه إلى غزو مصر، بأنّه سَيجّند عشرين ألفا من الأقليات، ليكونوا عونا له، وبالفعل فقد شكّل في مصر فيلقا من الأقباط يقودهم، المعلم يعقوب حنا (١٧٤٥-١٨٠١م) الذي أصبح جنرالاً في الجيش الفرنسي. ومن حينها شرعوا باستقطاب الأقليات الدينية بواسطة مدارس الإرساليات الفرنسية، فكان من خريجي هذه المدارس فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢م) المبشر الأول للعلمانية الغربية، وشبلي شميل (١٨٦٠-١٩١٧م) أوّل من بشّر بالوضعية المادية الإلحاد، وأمين شميل (١٨٢٨-١٨٩٧م) أوّل من دعا إلى تبديل العاميات محل اللغة العربية الفصحى (ــ عماره، ٢٠٠٣: ٤٧).

واخيراً فمادامت العلمانية وليدة المشكلات والتعقيدات التي عاشتها أوروبا إبان القرون الوسطى، وفي طليعتها انحراف الكنيسة وطغيانها، فليس من الحكمة تعميمها وتطبيقها على بلادنا الإسلامية وغيرها من البلدان التي لم تعش تلك المشكلات والتعقيدات، فتكون النسخة العلمانية المقترحة لهذه البلدان علاج لداء لاوجود له فيها.

٥. النتائج

وأما أهمّ النتائج التي تم – بفضل الله – التوصل إليها من هذا البحث فهي:

١. لم يكن الميل إلى الاتجاه العلماني المادي بالنسبة إلى عموم الناس في أوروبا ناتجا عن دراسة وعمق في الاختيار، بل كان معبراً عن موجة عاطفية، أفرزتها التحولات المهمة على الصعيدين الاجتماعي والعلمي.

٢. لم تكن النسخة العلمانية المقترحة لبلادنا الإسلامية دقيقة في تشخيصها، لأنّ العلمانية وليدة المشكلات و التعقيدات التي عانت منها أوروبا، فقياسها مع بلداننا الإسلامية قياس مع الفارغ.

٣. لم يكن الأداءُ السيءُ لرجال الكنيسة سبب حقيقي وراء إعراض الناس عن الدين، بل إنَّ السبب الواقعي من وراء ذلك هو الرغبة في التنصل عن القيود التي فرضها الدين على أتباعه، والميل إلى الانغماس في الانحراف والفجور، بذريعة مواجهة انحراف رجال الكنيسة. وإلا كان من الممكن استبدال المذهب الكاثوليكي بمذهب أو دين معتدل آخر.

الهوامش

١. حيث نشر الدكتور عبد الوهاب المسيري كتابا له تحت عنوان *العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة*، ط ١، دار الشروق، القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢. وهي فترة الانتقال من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة والتي بدأت بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م وبلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي وانطلقت من إيطاليا لتمتدّ إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وانجلترا وسائر أنحاء أوروبا. ← الكيالي، عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج ٤، ١١٧-١١٨ (بتصرف و اختصار)، ط ٢، الموسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠م.

٣. نسبة إلى المدينة التي كانت المسيحية تعقد اجتماعتها؛ فيها، والكائنه حاليا في الشمال الغربي من تركيا.

٤. وقد لخّص قانون نيفيا العقيدة المسيحية بالنص التالي: «نحن نعقد في إله واحد؛ الأب ذي الجلال، خالق كلّ شيء ظاهر وحفي، وفي سيد واحد، عيسي ابن الله، ومن الله، بمعنى أنّه من مادة الأاب، إله من إله، ونور من نور، إله خالص من إله من مادته وليس من ضعفه، فهو من مادة الله الذي صنع كلّ شيء في السماء، والذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل وضع الطبيعة البشرية، وجعل الإنسان يكره على تحمل العقوبة ثم صعد في اليوم الثالث وعاد إلى السماوات وسيعود لنا ثانية ليحكم في الدنيا والآخره ونؤمن الروح القدس. ← الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٥، ٦٢٦.

٥. تتمثل العائدات المالية بالأراضي الاقطاعية، والأراضي الموقوفة والهبات التي كان يقدّمها الإقطاعيون والنبلاء للبابا وأعوانه استمالة لهم، وكسبا لتأييدهم، تقدّم هذه الهبات بعنوان الإحسان، كسبا للثواب، وكذلك العشور التي فرضتها الكنيسة ضريبة على أتباعها، فتأخذ من المزارعين عشر ما تغله الأراضي الزراعية وعشر ما يحصل عليه العمال والكسبة (← ول دورانت، ١٩٨٨: ج ١٤، ٤٢٨).

٦. الإقطاع: نظام اجتماعي اقتصادي كان شايعا إبان القرون الوسطى لاسيما في أوروبا، وكان يقوم في الدول التي تعتمد اقتصادياتها على الزراعة، فالأرض في المملكة الإقطاعية هي ملك للملك يوزّعها أقطاعات على الأمراء في نظير التزمات مالية أو عسكرية ويقسّم الأمير المقاطعة إلى أقطاعات أصغر مساحة يوزّعها بين طبقه من السادة الأقطاعيين في نظير التزامات يتكفلون بها، ويعيش السادة على عمل الفلاحيين الذين يرتبطون بالأرض ويعتبرون جزء منها، ويخصعون لإرادة هؤلاء السادة الإقطاعيين (← عطية الله، ١٩٦٨: ٩٦).

٧. وفي هذا السياق ورد في كتاب *موسوعة السياسة* في بيان مصطلح الإقطاع مانصّه: نظام اجتماعي سياسي اقتصادي ظهر في القرون الوسطى، ويرتكز على حكم سادة الأرض «النبلاء» أصاحب الأقطاعيات يعاونهم في ذلك جهاز مسلح من الفرسان والمرتزقة بقصد الإرهاب وفرض سيادة الإقطاعي، إلى جانب الكنيسة التي كانت تقوم بأدوار مختلفة تقود في مجموعها إلى تبرير الوضع والمحافظة عليه (الكيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسية، ج ١، ٢٤٣).

٨. الخراج: ضريبة مالية تتقاضاها الدولة الإسلامية من الفلاحين. وهذه الضريبة تحددها طبيعة الحاجة والظروف التي تملي على الحاكم موافقه وقراراته وأحكامه. وعلى غرار ذلك أيضا تحدد مساحة الأرض التي يقتطعها الحاكم للفلاح.

٩. منذ العام ٦١ الميلادي بدأت المسيحية تنتشر في روما وعلى مدى مئتين وخمسين عاما عاشت الكنيسة المسيحية في اضطهاد دائم، و استشهد العديد من المسيحيين في سبيل جهرهم بدينهم و فضهم مبدأ تأليه الإمبراطور الروماني و ما يحصل المسيحيون حرية ممارسة دينهم إلا في عهد إمبراطور قسطنطين الأول الذي أصدر في العام ٣١٣م مرسوم ميلانو الذي أطلق حرية المعتقد الديني (الكيالي، عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج ٦، ١٨٢).

١٠. زعيم الإصلاح البروتستانتي. نال شهادة أستاذ في العلوم من جامعة إيرفورت ١٥٠٥م، وبدأ يدرس القانون ثم تحوّل عنه ودخل ديرا للرهبان الأوغسطينيين حيث رسم قسيسا ١٥٠٧م، ثم عين لرعاية كنيسة فتنبرغ بألمانيا. ولدي زيارته لروما في مهمة ١٥١٠م ساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنيسية العليا. وبعد عودته إلي متنبرغ بدأ يضع خططا لإصلاح عقيدة الكنيسة. وفي ١٥١٧م تحدّي تيتزل الذي كان يبيع صكوك الغفران.

١١. المذهب الكاثوليكي: وهو مذهب المسحيين الذين يعتبرون بابا روما زعيمهم الروحي. وقد انفردت الكاثوليكية لتكون مذهبا بلا منازع للمسيحيين إذ لم يكن قبل العام ١٠٥٤م مذهب منافس لها إلا أنّ شرخاً أوجده انشقاق بين المسيحيين بعد هذا التاريخ قسّم الكنيسة إلى شرقية متمثلة بالكنيسة الأورثوذكسية وغربية متمثلة بالكنيسة الكاثوليكية، مما أفقد الكنيسة الكاثوليكية جزءاً كبيراً من مسيحيي الشرق، كما فقدت الكنيسة الكاثوليكية جزءً آخر من أتباعها بسبب الشرخ الذي أوجده مارتن لوثر في الكنيسة الغربية في القرن السادس عشر وتأسيسه للمذهب البروتستاني، وبقيت الكاثوليكية محافظة على أغلبية الأنصار بسبب البعثات التبشيرية التي أوفدتها إلى افريقيا وإلى الشرق. والمرجع الأول في الكنيسة الكاثوليكية هو البابا باعتباره خليفة للقديس بطرس الذي هو بدوره خليفة ليسوع المسيح، ويخضع للبابا جميع الأساقفة، كما يخضع للأساقفة جميع الكهنة.

١٢. جان كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) لاهوتي فرنسي بروتستانتي أفرزت تعاليمه أحد المذاهب المسيحية وهو المذهب (الكلفيني) (ــ الكيالي، عبدالوهاب، موسوعة السياسة، ج ٥، ٥٠-٥١).

١٣. مذهب ديني مشتق من اسم مؤسسه جان كالفن، انتشرت الكلفينية على نطاق واسع واعتنقها جماعات عديدة في اسكتلندا و انكلترا وفرنسا.

١٤. عصر النهضة الأوروبية: مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرن ١٤-١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنينية ١٤٥٣م حيث نزح العلماء إلى

إيطاليا ومعهم تراث اليونان والرومان، ويدلّ مصطلح عصر النهضة غالبا على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن الرابع عشر، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين (١٥-١٦)، ومن إيطاليا امتدّت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة، وإنكلترا، وإلى سائر أنحاء أوروبا، وكان أعظم شخصيات النهضة: ليوناردو دافينتشي، وهيكل آنجلو، وميكافيلي، وكان من بين الشخصيات اللامعة الأخرى آرازموس، ورابكيه، ومونتين. وكان لهذه الحقبه تأثير واسع النطاق في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث (ــ الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج ٤، ١١٨).

١٥. كان إحصاء عدد اليهود في العالم عند قيام الحرب العالمية الثانية نحو ١٥ مليون نسمة (ــ الكيالي، عبدالوهاب، موسوعة السياسية، ج ٧، ٤٤٢).

١٦. حيث تضمّن بعضها: ارتياحا بما آل إليه الشباب المسيحي من تعاطي الخمور، والانغماس في حالات التسافل والانحطاط الخلقي التي مهّد لها عملاؤهم ودعاة فسادهم، كما تضمن بعضها دعوة إلى تقليص النفوذ الديني ما بين الناس، وانتزاع فكرة الله من عقول غير اليهود، واستبدالها بعمليات حسابية مادية (ــ البروتوكول الأول والثالث والرابع من كتاب *الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون*، محمد خليفة التونسي؛ باختصار وتصرف، ط ٤، دار الكتب العربي، بيروت).

١٧. وثيقة سرية تشتمل على مشروع يهدف إلى سيطرة اليهودية على العالم، قدّمة تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية العالميه إلى المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد بمدينة بازل عام ١٨٩٧م، أزيح عنه السر، لأول مرة في روسيا عام ١٩٠٥م، وهو يتضمن اتفاقا سريا بين زعماء اليهود عقد في مدينة براج ببوهيميا - عاصمة تشكيو سلوفاكيا الحالية - يرسم خطوط مؤامرة يهودية لفرض سلطانهم على شعوب العالم، بإشاعة الرشوة والخيانة والجاسوسية، والتهوين من المثل القومية والخلقية، والتحكم في الاقتصاد الوطني وفي وسائل الدعاية كالصحافة والنشر، لتحقيق هذه السيطرة (عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، ١٩٧-١٩٨، ط ٣، دار النهضة العربية، ١٩٦٨م).

١٨. جاءت هذه الكلمة من العمران، فيقال «استعمره في المكان: جعله يعمره، كقوله «استعمر الله عباده في الأرض» أي طلب منهم العمارة فيها، لويس معلوف، منجد اللغة، مادة عمر، ص ٥٢٩، ط ٥، ١٣٨٨ هـ ش، طهران، منشورات إسلام.

١٩. غلادستون (وليم) (١٨٠٩–١٨٩٨م) سياسي إنجليزي، ولد في ليقربول. زعيم حزب الأحرار. رئيس وزراء عدة مرات (المنجد في الأعلام، ص ٣٩٢، ط ٢١، دار المشرق، ١٩٩٩م).

٢٠. نسبة إلى مؤسسه محمد بن عبد الوهاب (١١١٥–١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣–١٧٩٢م) ولد في قرية عيينة إحدي القري التابعة لنجد وكان أبوه عبدالوهاب قاضيا من علماء الحنابلة، و كان محمد بن عبد الوهاب منذ شبابه يستنكر على الذين يتوسلون برسول الله (ص)، ولما واصل حملاته المسعورة ضدّ الشعائر الدينية في نجد أدّي إلى نشوب النزاع والخلاف بينه وبين أبيه من جهة و بينه وبين أهالي نجد من جهة أخرى، واستمرت الحالة على هذه الصورة حتى عام ١١٥٣ هـ . حيث توفي والده، عند ذاك خلا الجوّ لمحمد بن عبدالوهاب، فراح يعلن عن عقائده الشاذة، واشتهر أمره في المدينة.

٢١. الصوفية: طريقة روحية معروفة عند بعض الشعوب ذات الحضارات القديمة وهي نزعة سلوكية، وليست فرقة سياسية أو مذهبية، ومن الجائز عند الصوفية من المسلمين أن يكون الصوفي على أيّ مذهب من المذاهب، شيعيا أو معتزليا أو سنيا، ويمكن أن تطلق كلمة متصوفة على أيّ جماعة تلبس الصوف أو الخشن من الملبس، أو أن تنضوي تحت لواء صف من الصفوف، أو تركن إلى صفة المسجد أو غيره. والأصل أنّ المتصوفة هم العاكفون على العبادة والمنقطعون إلى الله، والمعرضون عن زخرف الدنيا وزينتها، والزاهدون فيما يقبل عليه عامة الناس من لذة ومال وجاه، والمنفردون عن الخلق بالخلوة للعبادة ... حملت الصوفية في بعض جوانبها تناقضات مع منهج العبادة في الإسلام، إذ إنّ الإسلام لم يحَرِّم طيبات الدنيا بل أباحها بشرط عدم الإسراف فيها ... الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ج ١٥، ٢٠٨، ط ٢، ١٩٩٩م. وأما الدروشة فقد جاءت من كلمة درويش، والدرويش كلمة فارسية تعني المتسوّل أو الشحاذ، وعند الصوفية تعني الزاهد. يعيش الدروايش حياة التقشف في مأكلهم ومشربهم، ويعرفون باسم المدوّمين لأنّهم يدورون كالدوّامه، يرقصون على إيقاع الطبول في حلقات الذكر التي تنظمها الصوفية ... وليس هذا ما عليه أهل الإسلام (المصدر نفسه: ج ١٠، ٣١٢). وقد رأيتهم بعينيّ في سبعينيات القرن العشرين في إحدي المدن العراقية، وهم يغرسون السكاكين في أجسادهم في حركات عفريتية أقرب إلى الشعوذة والسحر منها إلى الواقع.

المصادر

القرآن الكريم.

أكرم، سيد محمود (٢٠٠٩م). *معجم الطلاب الوسيط*، ط٢، بيروت: دارالكتب العلمية.

البعلبكي، روحي (٢٠٠٨م). *المورد الثلاثي*، بيروت: دارالعلم للملايين.

البهي، محمد (١٩٧٣م). *الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي*، ط ٦، بيروت: دار الفكر.

بيات، عبدالرسول (١٣٨١ش). *فرهنگ واژه‌ها*، ط ٢، قم: مؤسسه انديشه و فرهنگ ديني.

التونسي، محمد خليفة (د.ت). *الخطر اليهودي – بروتوكولات حكماء صهيون*، ط ٤، بيروت: دار الكتب العربي.

حسيبة، مصطفي (١٤٣٣ق). *المعجم الفلسفي*، لا.ط، أردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.

السبحاني، جعفر (١٤٢٧ق). *المذاهب الإسلامية باختصار وتصرف*، ط ٢، قم: مؤسسة الإمام الصادق (ع).

شمس الدين، محمد مهدي (١٩٨٠م). *العلمانية*، ط ١، بيروت: المركز العالمي للدراسات والأبحاث.

الصدر، محمد باقر (١٤٣١ق). *اقتصادنا*، ط ٢، قم: مركز للشهيد الصدر الأبحاث والدراسات التخصصية.

الصدر، محمد باقر (١٤٣١ق). *فلسفتنا*، ط ٣، قم: دار الصدر مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر.

عاشور، سعيد عبدالفتاح (٢٠٠٩م). *تاريخ أوروبا في القرون الوسطى*، لا.ط، بيروت: دار النهضة العربية.

عبده متولي، مي سمير (٢٠١٣م). *العلمانية في الفكر العربي والإسلامي*، ط ١، القاهرة: المكتب العربي للمعارف.

العرمابي، محمد زين الهادي (١٤٠٧ق). *العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي*، ط ١، الرياض: دار العاصمة الرياض.

عطية الله، أحمد (١٩٦٨م). *القاموس السياسي*، ط ٣، القاهرة: دار النهضة العربية.

الكيالي، عبدالوهاب (١٩٩٠م). *الموسوعة السياسة*، ج ١، ٤، ٥، ٧، ط ٢، بيروت: الموسسة العربية للدراسات و النشر.

المجلسي، محمدباقر (١٤٠٣ق). *بحارالأنوارالجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار*، ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

المسيري، عبد الوهاب (١٤٢٣ق). *العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة*، ط ١، قاهره: دار الشروق.

المصري، أيمن (١٤٣٣ق). *معالم النظام السياسي*، ط ١، قم: منشورات محبين.

الموسوعة العربية العالمية (١٩٩٩م). ج ٦، ط ٢، المملكة اعربية السعودية: موسسة اعمال الموسوعة للنشر و التوزيع.

موسوعة المعارف البريطانية (britanica) باب العلمانية (secularism): من الانترنيت.

النقوي، علي محمد (١٩٩٧م). *الاتجاه الغربي من منظار إسلامي*، ترجمة: عبد الكريم محمود، طهران: رابطة الثقافة والعلاقات الخارجية.

نهج البلاغه (١٤٢٦ق). الشرح: صبحي الصالح، ط ٣، قم المقدسة: دار الحديث للطباعة والنشر.

وجدي، فريد (١٩٧١م). *دائرة معارف القرن العشرين*، ط ٣، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

ول دورانت (١٩٨٨م). *قصة الحضارة*، د.ط، بيروت: دارالجيل.

ويلز (١٩٩٤م). *معالم تاريخ الإنسانية*، ترجمة: عبدا لعزيز توفيق جاويد، د.ب: الهيئة المصرية العامة للكتاب.